البنية الحجاجية للخطاب عند الزمخشري في تفسيره الكشاف

إعداد

هشام نمر مرعي حسين

باحث دكتوراه بقسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة بني سويف

الملخص:

يسعى البحث إلى دراسة الحِجَاج عند الزمخشري في تفسيره الكشاف متناولا الحِجَاج اللغوي في خطابه من منظور تداولي، ويعتبر تفسير الكشاف للزمخشري مجالا خصبا لهذا الموضوع.

فموضوع الحِجَاج يمثل مجالًا من النشاط اللغوي الذي شدَّ إليه الأنظار على مرّ الأيام منذ بلاغة القدامى الذين جعلوا منه الأساس ذاته للعلاقات الاجتماعية (فن الإقناع) حتى يومنا هذا حيث أصبح من جديد لغة العصر؛ لسبب ذلك مثّل مصطلح (الحِجَاج) موضوعًا تأسس عليه عددٌ كبير من المفاهيم مما جعل دراسة هذه الظاهرة اللغوية وتقديمها أمرًا من الأهمية بضرورة.

ويعتمد البحث على المنهج التحليلي لخطاب الزمخشري من منظور تداولي، فالمنهج التداولي هو مستوى تصنيف إجرائي في الدراسات اللغوية يتجاوز دراسة المستوى الدلالي، فيُعنى المنهج التداولي بكيفية توظيف المتكلم للمستويات اللغوية المختلفة في سياق معين، حتى يجعل إنجازه موائمًا لذلك السياق، وذلك بربط إنجازه اللغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه، وتسهم هذه العناصر كلها في تحديد الدلالة عند المتلقي، إذ يعتمد عليها في تأويل الخطاب وفهم مقاصده.

الكلمات المفتاحية:

آليات الخطاب، التحليل التداولي، البنية الحجاجية، الاستفهام، أشكال البنية.

Abstract:

The research aims to examine the argumentation in Al-Zamakhshari's interpretation in Al-Kashaf, focusing on the linguistic argumentation in his discourse from a discursive viewpoint. Al-Zamakhshari's Al-Kashaf interpretation is seen as a rich ground for this study.

The topic of argumentation represents a field of linguistic activity that has drawn attention over the years, from the rhetoric of ancient scholars who made it the foundation of social relations (the art of persuasion) to the present day, where it has once again become the language of the era. This has led the term "argumentation" to become the basis for numerous concepts, underscoring the significance of studying this linguistic phenomenon and presenting it. The research employs the analytical approach to Al-

Zamakhshari's discourse from a discursive perspective. The discursive approach goes beyond the semantic level in linguistic studies, focusing on how the speaker utilizes different linguistic levels in a specific context, ensuring that his linguistic expression aligns with that context by linking it to the contextual elements. These elements play a crucial role in determining the meaning for the recipient, as they are relied upon for interpreting the discourse and understanding its intentions.

المقدمة

يُعد الحِجَاج طريقة في التواصل غايته الاستمالة والإقناع والتأثير، ويقوم على بنية لغوية تواصلية تقوم بين طرفين هما: (المتكلم والمتلقي)، وتعتمد في الأساس على الحجَّة التي تهدف إلى الإقناع، ويعد الخطاب القرآني أرقى النصوص الذي يخاطب أصنافا مختلفة من المتلقين.

ومن ثمّ لاشك في بنيته اللغوية القائمة على الحِجَاج، والقرآن الكريم موضوع دراسة الزمخشري في تفسيره الكشاف، ومن ثمّ لا يخلو من البنية اللغوية الحِجَاجية التي ستعالج موضوع البحث.

وقد اهتمت اللسانيات منذ بداية القرن العشرين بدراسة اللغة وتفسير قضاياها ومستوياتها، حيث كانت تسعى إلى الابتعاد عن الانطباعية، فاجتهد اللسانيون في التعامل مع الدلالة تعاملًا جادًا غير ما كان سائدًا من قبل حيث أصبحت كل تيارات اللسانيات البنيوية تبحث عن التفسيرات الملائمة للبنية اللغوية بكل عناصرها ومكوناتها وخاصةً المعنى.

والخطاب عبارة عن عملية تفاعلية وتواصلية وتداولية تحضر فيها أطراف ثلاثة (المُرسِل، المُرسَل إليه، الرسالة)، ومن ثمّ يعبر المُرسِل عن مجموعة من النوايا والرغبات و المقصديات المباشرة وغير المباشرة لإيصالها إلى السامع المفترض.

وتنتهي دراسة الحجاج إلى البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة، أي القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكلٍ متنامٍ وتدريجي، وبعبارة أخرى فإن الحجاج يتمثل في إنجاز تسلسلاتٍ استنتاجية داخل الخطاب.

ويجسد الزمخشري مخطط العملية التواصلية عبر أطراف التواصل المُرسِل والمُرسَل إليه في كشافه، حيث يفترض سائلا يعرف بـ (السائل المفترض) وهذا السائل في الحقيقة هو الزمخشري يسأل ويجيب في آن واحد، والمتكلم هو الزمخشري أيضا، فالخطاب عند الزمخشري تبلور في ثلاثية رائعة، وهي (السائل المفترض ، المتكلم ، المتلقي)، ويسعى (السائل المفترض ، والمتكلم) في إقناع المتلقي بالمراد.

وبالتالي يخرج من توظيف اللغة كنظام إلى بيان و اقعها الخارجي أو التداولي وهو ما يعرف في اللسانيات المعاصرة (علم الاستعمال اللغوي)، فليست اللغة مجرد نظام كما دعا إلى ذلك (دي سوسير) و إنما تجاوزهذا المفهوم إلى اللغة كوظيفة تواصلية تستدعي أطر افا يتداولون خطابا معينا ومحيطا يخضع لهذا الاستعمال هي مرتكزات تقوم عليها النظرية التداولية التي نجدها مجسدة عند الزمخشري.

فصاحب الكشاف توصل إليها وسبق بها (جاكبسون) الذي رسم مخطط العملية التواصلية ولم يدر أنه سبق بها، إلا أن علمائنا كانت درايتهم بها عملية إجر ائية وليست تأصيلية تنظيرية تأملية كما هي عند الغرب، فاستدعاء الزمخشري لسائل يقوم مقام المرسل إليه ويحاوره، وهنا نجد المطابقة مع النظرية الحوارية التي جسدها (باختين) والتي تعد من أهم المظاهر التي خرج بها الدرس اللساني من حدود الجملة إلى النص.[1]

فنجد الزمخشري يطرح افتراضا وسؤالا بقوله فإن قلت؟ ثم يجيب بقوله قلت، وهذا ما يسمى بمنهج (المقاولة) والتي هي مفاعلة أي اشتراك بين طرفين أو أكثروكل هذا ينم عن وعي الزمخشري بالكثير من المباحث التي تمثل السمة الجوهرية في الدرس اللغوي.[2]

(1) ينظر أثر السياق في ترجيح دلالة النص لدى الزمخشري، الكشاف أنموذجا، دايد عبد القادر149: 150.

(2) ينظر نفسه 149: 150.

المبحث الأول:
تحليل الخطاب الحجاجي

إن عناصر الخطاب الحجاجي تتمثل في المقدمات والقضايا التي منها يكون الانطلاق، وبها يستمال المتلقي في بناء قناعاته؛ لذا يشترط فيها الاتفاق المبدئي بين الباث والمتلقي في جملتها، على إن هذا لا يعني بالضرورة صدق المقدمات و اقتناع المتلقي كلياً بها، فله الحق في رفضها أو قبولها، إلا أن ما يشترط فيها الحس المشترك وأن تو افق المقامات، وتتغير تبعاً لتغيره.[1]

وأن يختار المتكلم (المحاجج) منها ما يناسب تلك المقامات؛ لتحقق الفاعلية الحجاجية في جمهور المتلقين، ومن هنا يبرز دور المتكلم (المخاطب) في انتقاء عناصر المحاجة، فالمقدمات التي يؤسس عليها الحجاج ليست ذات فاعلية في ذاتها، بل تعتمد على أُسس ومرتكزات ترتبط بكفاءة الخطيب ووعيه بطاقات مخاطبيه المعرفية، الذين بهما تكتسب عناصر الحجاج شحنتها الحجاجية.[2]

فعندما يتكلم الزمخشري عن مسألة نحوية ينتقي عناصر المحاجة من الأدلة النحوية، بينما إذا ناقش مسألة فقهية تغيرت عنده المقدمات التي يؤسس عليها حجاجه، ومن الشواهد في تفسيره على ذلك قوله تعالى:(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) البقرة/5

قال الزمخشري مفسرًا و محاججًا في مسألة نحوية:" فإن قلت: هل يجوز أن يجري الموصول الأول على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره؟ قلت: نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضا بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله، وفي اسم الإشارة الذين هو أولئك إيذان بأن ما يرد عقيبه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدّدت لهم."[3]

([1]) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل 86

([2]) الحجاج في البلاغة المعاصرة، د. محمد سالم الأمين114

([3]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا40

وقد اختار الزمخشري ما يناسب مقام المحاجة النحوية ؛ لتحقق الفاعلية الحجاجية في جمهور المتلقين، فاعتمد على أُسس ومرتكزات تبين كفاءته ووعيه بطاقات مخاطبيه المعرفية، الذين بهما تكتسب عناصر الحجاج شحنتها الحجاجية، وهكذا فإن كل محاجة تتو افق معها المقدمات بما يناسبها.

دور المتكلم أو المخاطب في اختيار المقدمات:

بشكل عام إن المتكلم قبل أن يواجه بخطابه المخاطب الو اقعي لا بد من أن يكون له تمثيلاً ذهنياً وصورة متخيلة المخاطب المتخَيل (المفترض) انطلاقاً من معطيات سياقية تخصّ المخاطب الو اقعي، فيقتضي لذلك أن يكون المتكلم قد كون فكرة مفترضة عن مخاطبه قبل أن يواجهه بخطابه و اقعياً وفعليًا [1] ، فكلما كانت المسافة الفاصلة بين المخاطب الو اقعي والمتخيل قريبة كان الحجاج ناجحاً وناجعاً، ومآله التواصل والاقناع، وبعكسه فإن مصيره الغموض والفشل.

إن الخطاب الحجاجي خطاب غائي، غايته اقناع المتلقي بفكرة أو حثّه على الانتهاض لعمل ما؛ ولذا عرف بيرلمان الحجاج عبر موضوعه الذي هو" درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان الى التسليم بما يعرض عليها من أُطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[2].

وعلى هذا التعريف يتَّخذ الحجاج منحيين :[3]

الأول: منحى التحليل والاستدلال، ويهدف إلى تقديم أُطروحات مقبولة للتأثير في المتلقين واستمالتهم.

والثاني: منحى التواصلية عبر شبكة منطقية تهدف إلى التأثير في الآخرين، أو جر المتلقي إلى الاقتناع الذي هو غاية العملية الحجاجية، على نحوٍ لا يكتسي صبغة الإكراه.

إن تغيير موقف المتلقي و أفكاره بما ينسجم مع مراد المتكلم، يعد مؤشراً على نجاح الخطاب، فالإقناع حالة مفروضة من الخارج يقوم بها الغير مقدمة للاقتناع الذي ينطوي على تسليم وإذعان تقره النفس وتخضع له، ومع ذلك فالاقتناع ليس

([1]) ينظر بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري285.

([2]) في نظرية الحجاج، د. عبدالله صولة ، ص١٣.

([3]) الحجاج في البلاغة المعاصرة، د. محمد سالم الأمين، ص 108.

ضـرورياً أو ملازماً لماهية الخطاب الحجاجي" فالحجاج يهدف كثيراً الى إثبات الدعوى ودحض دعاوى الآخرين، بغض النظر عن توليد الاقتناع، وإن كان الاقتناع قد يحصل بوصفه نتيجة حتمية تفرض ذاتها.[1]

فعملية النجاح في الخطاب الحجاجي وتحقيق النجاعة فيه إنَّما تكون بتحقق جملة من الشـرائط والمميزات، وهذا يسـتدعي منَّا الوقوف على أهم الخصـائص التي تشكّله، وتميز خصوصياته الخطابية التي منها:[2]

١ - خاصـية البناء والدينامية: فالحجاج عملية يتم بناؤها تدريجياً، وتتطلب تكيفاً مستديماً لعناصرها الى نهاية إتمام الحجة، ففاعلية الخطاب الحجاجي تكمن في طريقة بنائه وتفاعل عناصـره، فالاقتصـاد مثلاً في الأدلة الحجاجية له دور هام في عملية الإقناع؛ إذ المبالغة في سرد الأدلة في غير مناسبة، يفقد الحجاج فعاليته وقوته.

٢ - الخاصية التحاورية: إن اللغة في جوهرها ممارسة تخاطبية بين ذوات متكلمة وأُخرى مستمعة، والخطاب الحجاجي في جوهره حوار مع المتلقي، بين مؤسس الخطاب ومتلقيه، يسـعى المتكلم عبره إلى إقناع أكبر عدد من المتلقين، قد يشـمل المخاطَب (المتلقي الكوني) كذلك، عبر حوار يمكن تسميته بـ (الحوار الكوني)، يقوم على مبدأ الاعتراض المحتمل والمتصـور بحسـب كفاءة الباث (الخطيب) ورؤيته الكونية المستقبلية.

٣ -الخاصية التفاعلية : وهي مبنية على سابقتها، فإن الخطاب الحجاجي يقوم على مبدأين اثنين :الادعاء (سـمة المتكلم) ومبدأ الاعتراض (سـمة المتلقي) يؤدي الاختلاف بينهما الى ممارسـة الدفاع والانتصـار لدعوى كلٍّ منهما، فيتفاعلان معاً للوصول إلى الحقيقة.

٤ - خاصية الالتباس: لا يبتني الخطاب الحجاجي على القول الظاهري المباشر؛ لأن القول إذا اقتصـر على ظاهره، جاء مألوفاً، لا يعيره المتلقي أدنى اهتمام، أما إذا حمل معه إشـارات رمزية، فإنَّه سـيحرك الفهم والتأويل لدى المخاطَب ويدفعه نحو الاعتقاد، ومكمن الالتباس في الخطاب الحجاجي هو من طريق المجاز.

---

(1) البلاغة والاتصال، د. جميل عبد المجيد، ص١٠٥.

(2) ينظر عندما نتواصـل نغير، د. عبد السـلام عشـير 28، ينظر اللسـان والميزان، أو التكوثر العقلي ،طه عبد الرحمن225: 231، ينظر استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص96.

٥ -خاصية الانتهاض للعمل: إن الخطاب الحجاجي يتأسس على إقناع المتلقي بوجهة نظر ما وحمله على تغيير موقفه واستبداله بموقف ثان يدعو إليه الخطيب، وهذا العمل يؤكِّد حصول الاقتناع لدى السامع، ولا يتأتى ذلك إلا عندما يلبس المتكلم ثوب التجربة ويطبقها على نفسه.

يرتبط الحجاج بالخطاب، فـــ " الحجاج هو مجموعة من الاستراتيجيات الخطابية لمتكلم ما، يتوجه بخطابه إلى مستمع معين من أجل تغيير الحكم الذي لديه عن وضع محدد." [1]

وتؤثر في الخطاب آليات متعددة منها:

أ- الإشاريات: وهي من أهم الآليات اللغوية في التحليل التداولي للخطاب، وتعرف الإشارة على أنها علاقة بين اللفظ وما يشير إليه في المقام المستخدم فيه، وتتمثل الإشاريات" في أسماء الإشارة والضمائر من العلامات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي لأنها خالية من أي معني في ذاتها "[2]

وتقوم الإشارات على عناصر إنتاج الخطاب وتشكيله انطلاقا من ثلاثة أنواع هي:

الإشاريات الشخصية:

تعرف الإشاريات الشخصية على أنها " الإشاريات الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب، فالذات المتلفظة تدل على المرسل في السياق، فقد تصدر خطابات متعددة عن شخص واحد، فذاته المتلفظة تتغير بتغير السياق الذي تلفظ فيه.[3]

وتعتبر فيها الذات المتلفظة محور التلفظ في الخطاب تداوليا، وهذا ما يجعل حضور الأنا ضروريا في كل خطاب والإشاريات الشخصية من أبرز العناصر الإشارية الدالة على الشخص، وهي ضمائر حاضر، والمقصود بها الشخصية الدالة على المتكلم وحده مثل: أنا أو المتكلم ومعه غيره أو مثنى أو جمعا، مذكرا أو مؤنثا.[4]

([1]) الخطاب الحجاجي السياسي في (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة، دراسة تداولية، ابتسام بن خراف، ص126.

([2]) استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص80.

([3]) نفسه81.

([4]) ينظر آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة17: 18

وسلسلة الضمائر وعدم حملها المعنى في ذاتها يمكنها من التحول حسب السياق الذي ترد فيه، ونلاحظ أن ضمائر المتكلم وضمائر المخاطب يفسرها وجود صاحبها أثناء الكلام فهو حاضر يتكلم بنفسه أو حاضر يكلمه غيره، فهي ضمائر الحاضر، ومرجعها يعتمد على المقام لتحديد المتكلم أو المخاطب الذي يحيل إليه الضمير.

وتظهر الإشاريات الشخصية من خلال محاجة الزمخشري في تفسيره الكشاف من خلال أسلوب السؤال والجواب، والشواهد كثيرة في الكشاف، ومنها تفسير قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) لقمان/ 6

قال الزمخشري:" فإن قُلْتَ: ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث! قُلْتُ: معناه التبيين وهي كالإضافة بمعنى من أن يضاف الشيء إلى ما هو منه كقولك: صفة خزو باب ساج والمعنى من يشتري اللهو من الحديث؛ لأن اللهو يكون من الحديث، ومن غيره فبين بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى من التبعضية."[15]

ونخلص مما سبق الإشاريات الشخصية في عرض الزمخشري للمحاجة، فإن قُلْتَ: (ضمير المخاطب (أنتَ) السائل المفترض، بينما في الإجابة قُلْتُ: ضمير المتكلم (أنا)، وهذا هو الغالب في كشافه، كما جاء في تفسير الآية السابقة ضمير الغائب مستتر في الفعل يشترى (هو)، وقد تناول الزمخشري السؤال في أغلب الكشاف بالاستفهام (؟)، وفي بعض الأحيان بالتعجب(!).

الإشاريات الزمانية:

تعد من أبرز العناصر اللغوية التي تساهم في معرفة قصد المتكلم وفهم الخطاب، والإشاريات الزمانية كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام.

وتتضح الإشاريات الزمانية عند الزمخشري في كشافه معبرة عن الزمان، ومن الشواهد الدالة على ذلك، تفسير قوله تعالى: (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ، قَالَ رَبُّكُمْ

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا ، ص835.

وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ،قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) الشعراء/ 25: 28

قال الزمخشري:" فإن قُلْتَ: ذكر السماوات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ قُلْتُ: قد عمم أولا ثم خصص من العام للبيان أنفسهم و آباءهم لأن أقرب المنظورفيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عن الاحتجاج بالأحياء والإماتة على نمرود بن كنعان فبهت الذي كفر."[1]

ونخلص من تفسير الزمخشري للآيات السابقة أن الإشاريات الزمانية كلها تدل في الفقرة السابقة على زمن الماضي، فقصد المتكلم عرض المحاجة بين موسى (عليه السلام) وفرعون في الماضي، فجاءت الإشاريات الزمانية كلها تعبر عن زمن الماضي.

وقال النسفي: وهذا غاية الإرشاد، حيث عمم أولا بخلق السموات والأرض وما بينهما، ثم خصص أنفسهم و آباءهم لأن أقرب المنظورفيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه، وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر (كما يراه الناظر) على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن من الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن كنعان.[2]

ومن الشواهد أيضا، تفسير قوله تعالى:(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) غافر/79

قال الزمخشري:" فإن قُلْتَ: لم قال (لِتَرْكَبُوا مِنْهَا) ولتبلغوا عليها ولم يقل لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع أو هلا قال منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون عليها حاجة في صدوركم ! قُلْتُ: في الركوب الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 758.

(2) ينظر الأساس في التفسير، سعيد حوّى7/ 3914

بلد لإقامة دين أو طلب علم وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم أما الأكل وإصابة المنافع، فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته."[1]

إن الإشاريات الزمانية في تفسير الزمخشري للآية السابقة تدل على زمن المضارع (الحاضر)، فجملة (لِتَرْكَبُوا مِنْهَا) في الآية تتماشي مع زمن الحاضر وقت نزول الآية وغيرها من الأزمنة وجاءت الأفعال في تفسير الزمخشري للآية الكريمة دالا على الحاضر والمستقبل أيضًا.

ومن الشواهد تفسير الزمخشري لقوله تعالى: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) النور/ 32

قال الزمخشري:" فإن قُلْتَ: لِمَ خصّ الصالحين؟ قُلْتُ: ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ولأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم، وينزلونهم منزلة الأولاد في الأثرة والمودة، فكانوا مظنة للتوصية فيهم وأما المفسدون منهم، فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك أو أريد بالصلاح القيام بحقوق النكاح، ينبغي أن تكون شريطة الله غير منسية في هذا الموعد، ونظائره وهي مشيئته ولا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة ونحوه."[2]

وجاءت الإشاريات الزمنية في تفسير الزمخشري للآية الكريمة للدلالة على الماضي متمثلة في الفعل (خصّ)، وهو ما يظهره اللفظ ، ولكن بحسب سياق الآية الكريمة وتفسير الزمخشري، نجد أن المعنى متعمق عن اللفظ، فالفعل (خصّ) يدل على الإخبار، ويمكن أن يخرج الفعل الذي يسميه النحاة بالماضي عن دلالته الحرفية التي عرف بها إلى دلالة أكبر، وهي الإطلاق حيث تنتفي فيه الزمنية ، ليصبح فعلا دالا على الزمن المطلق، فهذا الاختصاص فيه صفة الإطلاق للصالحين في كل زمن.

والدليل على ذلك الأفعال المضارعة التي أتت في توضيح هذا الاختصاص ومنها، (ليحصن، يحفظ، يشفقون، ينزلونهم، ينبغي، يشاء).

إن زمن فعل المضارع يدل على الحال، ودلالته على الزمن المستقبل مجاز، والدليل على هذا أن دلالة الفعل المضارع على الاستقبال تحصل بدخول قرينة مثل

([1]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 962.

([2]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 728.

السين ونحوها، فدلت السين على تأخير زمن الفعل المضارع عن الحال إلى الاستقبال، وضابط المجاز عندهم وجود القرينة، فدلالة المضارع على الاستقبال مجازية لا حقيقية. [1]

ومن الشواهد على ذلك تفسير الزمخشري لقوله تعالى:

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) الكهف/22

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم جاء بسين الاستقبال في الأول دون الآخرين؟ قلت: فيه وجهان: أن تدخل الآخرين في حكم السين كما تقول: قد أكرم و أنعم تريد معنى الاستقبال الذي هو صالح له (رَجْمًا بِالْغَيْبِ) رميا بالخبر الخفي و إتيانا به كقوله: (وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ) سبأ/53 أي: يأتون به، أو ووضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل: ظنا بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا: رجم بالظن مكان قولهم: ظنّ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين."[2]

فالإشاريات الزمانية كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام، وقد جاءت الإشاريات الزمانية في تفسير الزمخشري للآية الكريمة، منها زمن الماضي (جاء) في السؤال عن المحاجة، ثم تبعه إشاريات زمنية في الإجابة تدل على المضارع أو الحال منها (تدخل، يأتون).

الإشاريات المكانية:

تعد الإشاريات المكانية من العناصر اللغوية التي يقتضي الإلمام بمعناها، ومرجعها غير ثابت ولا محدد ويكمن دورها في الإحالة على المرجع مكاني، فهي" عناصر إشارية إلى أماكن، يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع."[3]

([1]) ينظر فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية، الشنقيطي1 / 69.

([2]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 616.

([3]) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص 21.

فالعنصر الإشاري المكاني يقدم صورة مسبقة لنوعية الخطاب، فهي تعبيرات دالة على مكان المتكلم ويستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفسروا الكلمات مثل هناك، هذا، وذاك وهنا ونحوها والإشاريات تختص" بتحديد المو اقع وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة إن هناك طريقتين رئيسيتين للإشارة إلى الأشياء هما :إما بالتسمية أو الوصف من جهة اولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى."[1]، فالإشاريات المكانية تضم جميع أسماء الإشارة وظروف المكان.

ومن الشواهد على الإشاريات المكانية عند الزمخشري في كشافه، ما ذكره في مقدمته:

قال الزمخشري: فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة وجدت في مجتازي بكل بلد فيه مسكة أهلها وقليل ما هم عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى متطلعين إلى إيناسه حراصا على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس أدام الله مجده...حتى ذكر أنه كان يحدِّث نفسه في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادّة بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابه هذا الغرض.[2]

وقد أشار الزمخشري في الفقرة السابقة من مقدمة كتابه إلى بعض العناصر الإشارية إلى أماكن محددة كـ (مكة، الحجاز، خوارزم) ، وهذه الأماكن استخدمت لمعرفة مكان المتكلم وقت التكلم.

ومن الشواهد في تفسير الزمخشري على الإشاريات المكانية تفسير لفظ (أدنى) في قوله تعالى:

(فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) الروم/ 3

قال الزمخشري:" والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي في أدنى أرضهم إلى عدوهم، قال:

([1]) استراتجيات الخطاب،عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص 84.

([2]) ينظر الكشاف، الزمخشري، مقدمة المؤلف، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 24.

مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضي الله عنهما الأردن وفلسطين."[1] .

وقد أشار الزمخشري في تفسيره للفظ (أدنى) أنها تدل على مكان، وعرض الأماكن المعروفة للمُخاطَب التي تناسب اللفظ (أدنى) مثل: (أطراف الشام، أرض الروم، أرض الجزيرة (وهي أدنى أرض الروم إلى فارس)، أو الأردن وفلسطين).

ب- الاستلزام الحواري:

فالاستلزام الحواري متصل بالمعنى الدلالي، ويلاحظ أثناء عملية التخاطب، ومن أهم مميزات الاستلزام الحواري أنه آلية من آليات إنتاج الخطاب حيث يقدم تفسيرًا صريحًا لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما تؤديه العبارات المستعملة.

فالمتلقي لا يدرك معناها إلا من خلال القرائن وأضرُب الاستدلال العقلي، كأن يرد المخاطب على السائل رداً لا يصلح حرفيا أن يكون جواباً عمّا سُئل، فيكون بواسطة القرائن قد أجاب عمّا سُئل عنه في مقام التعريض، وهو المصطلح بالاستلزام، فالاستلزام الحواري يمثل إشكالا دلالياً، يبرز من حين لآخر أثناء الخطاب الحواري [2]، فيسعى المتكلم إلى تبليغ سامعه بأمر ما على علم بأنه قادر على الوصول إلى قصده.

ويظهر الاستلزام الحواري من خلال تفسير الزمخشري للآية الكريمة:(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) سبأ/ 15

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ قلت: لم يرد بستانين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين من البساتين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها

(1) نفسه، ص 824.

(2) ينظر دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم مقاربة تداولية، بوقرومة، ص21.

وتضـامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبسـاتينها أو أراد بسـتاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله."[1]

وقد عرض الزمخشـري المحاجة عن طريق السـائل المفترض فطرح سـؤاله، ثم أخذ يجيب بالاستدلال العقلي، وهو بذلك اتبع آليات إنتاج الخطاب حيث قدم تفسيرًا صـريحًا لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، لبيان القصـد للمتلقي من خلال الاسـتدلال العقلي، وهذا غاية الاسـتلزام الحواري أن يجعل المتلقي قادرا على الوصول لقصده.

ج-المقصدية:

تتجلى المقصدية في الجمع بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والقصد العام من الخطاب، فالمقصـدية تعني موقف منتج النص متماسـك ومتناسـق، وهذا يدل على أن أي كاتب مبتغاه من إنتاجه لنص معين، هو نقل جملة من المقاصـد والأهداف و إيصـاله للقارئ، فلابد لمحلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار الجانب التداولي.

(يُبَصَّـرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَـاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ) المعارج/ 10: 11

قال الزمخشـري:" فإن قلت: لم جمع الضـميران في يبصـرونهم وهما للحميمين؟ قلت: المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين، ويجوز أن يكون يبصـرونهم صفة أي: حميمًا مبصرين معرّفين إياهم."[2]

ويعرض الزمخشري محاجته بطريقة متماسكة ومتناسقة ليبين مقصده من هذه المحاجة، فغرضـه من تلك المحاجة بيان أن اللفظ (يبصـرونهم) جاء فيه الضـمير جمع مع أنه يتكلم عن اثنين؛ ليدل على معنى العموم، أي: لكل حميمين لا لحميمين اثنين.

د- التلفظ:

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 871.

(2) نفسه، ص. 1139

التلفظ يعني الفعل الذاتي في استعمال اللغة، ويتيح التلفظ دراسة الكلام ضمن نظرية التواصل ووظائف اللغة، فالتلفظ يبين دور الملفوظات التداولية ودلالاتها، فهو عبارة عن عملية إنتاج ملفوظات ترتبط بأدوات الحضور، كضمير المتكلم ،وظروف المكان مثل: (هنا)، وظروف الزمان مثل:(الآن)، ويرتبط التلفظ بمجموعة الأدوات الدالة على الحاضر، كما يهدف إلى تثبيت علاقة المتكلم في مجموعة من العناصر المتداخلة، ويمكن أن تكون هذه العناصر (اجتماعية، نفسية، ثقافية، طبيعية).

والتلفظ يعد الأساس الذي بني عليه (أوستين) نظرية الأفعال اللغوية، ومن بعده (سيرل)، بوصفه ممارسة المرسل لينجز فعلا لغوياً يتلاءم مع السياق أي ما يصطلح عليه عند النحويين والبلاغيين العرب وغيرها.

وتكمن أهمية التلفظ كونه" النشاط الرئيسي الذي يمنح استعمال اللغة طابعها التداولي، بوصفه نقطة التحول بالممارسة الفعلية لها، مما يبلور عناصر السياق في الخطاب من مُرسِل ومُرسَل إليه كما أنه يتحدد به القصد والهدف."[1]

فالتحليل يسعى إلى صياغة القواعد اللغوية وذلك بربطه بين عنصرين أساسيين وهما التلفظ والعلاقة التي يجسدها الخطاب بين المتكلم والمستمع، ومنه فالتلفظ يحدد المعنى والغاية.

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) الناس/1

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم قيل (بِرَبِّ النَّاسِ) مضافا إليهم خاصة؟ قلت: لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم."[2]

ويعرض الزمخشري محاجته في بيان إضافة لفظ الجلالة (ربّ) خاصة، ويستدل بعدها سبب ذلك، وتظهر من خلال المحاجة آلية التلفظ من خلال الأدوات الدالة على الحاضر في الأفعال المضارعة (يملك، يستغيث)، والفعل المضارع يدل على

(1) استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي ظافر الشهري، ص27.

(2) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 1230.

الحاضر في وقته فالخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ولمن بعده من الأمة، وقد دلّ بذلك على الاستقبال لما فيه من عموم للمسلمين فيما بعد.

وفي التفسير الوسيط:" أمر الله سبحانه وتعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يستعين برب الناس ومالك أُمورهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم، ودفعه ما يضرهم."[1]

كما نرى من الأدوات الدالة على التلفظ ضمير المتكلم (أنا) في قوله: (قُلْتُ) للإجابة عن سؤال (السائل المفترض) في المحاجة، وفي الفعل (أعوذ) في تفسير الآية السابقة، كل ما سبق يهدف إلى تثبيت علاقة المتكلم في مجموعة من العناصر المتداخلة، ويمكن أن تكون هذه العناصر (اجتماعية، نفسية، ثقافية، طبيعية).

هـ-النظرية الحجاجية:

يعد الحجاج من أهم المحاور التداولية، حيث حظي بجهود مستفيضة من عدد لا بأس به من المناطقة واللغويين والفلاسفة المختصين بالتحليل الخطابي، كون الخطاب مجموعة من العبارات والصيغ الحجاجية موجة نحو المتلقي قصد إقناعه بمعلومات معينة.

ويعد الحجاج فعالية تداولية جدلية، ويرتبط أشد الارتباط بعناصر المقام، فهو أصل في كل تفاعل بين طرفي الخطاب، فالمحاجِجُ له القدرة على التأثير في المتلقي و إقناعه، فالحجاج كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها.

فالحجاج له علاقة بالتخاطب ويهدف إلى التأثير في السامع، فيكون بذلك ناجحاً فعالا، ويستعمل المُرسِل اللغة فيها فتتجسد عبرها استراتيجية الإقناع، فلا يمكن للمُرسِل أن يرسل خطابه دون أن يكون له غرضاً من ذلك قصد الاستمالة من خلال الحجاج اللغوي وغير اللغوي كالإيماءات والإشارات.

ومن الشواهد التي تبين الحجاج تفسير الزمخشري لقوله تعالى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) المدثر/ 42

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف طابق قوله: (مَا سَلَكَكُمْ) وهو سؤال للمجرمين قوله:(يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ) المدثر40: 41، وهو سؤال عنهم، و إنما كان يتطابق

(1) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر10/ 2060.

ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم ! قلت: ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم و إنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم لأن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم ما سلككم."[1]

إن الحجاج هو الآلية الأخيرة من آليات التحليل التداولي للخطاب، وهو موضوع البحث، ونلاحظ من تفسير الزمخشري للآية الكريمة، محاجته في توضيح هناك وسيط يسأله أهل الجنة عن حال أهل النار وهم الملائكة.

حيث قال القيرواني:" معناه أن المؤمنين يسألون الملائكة عن قراباتهم من المشركين، (فتسأل الملائكة المشركين) تقول لهم: ما سلككم في سقر؟! فيقول (المشركون) ما حكى الله من قولهم، و إقرارهم على أنفسهم بالجحود والكفر."[2]

إن التداولية من بين أهم آليات الإجرائية النظرية والتطبيقية التي تساهم في تحليل الخطاب ودراسته وتأويله وفهمه، وتركيبه وتفكيكه، فهي تعنى بدراسة اللغة حال الاستعمال وتهتم بأقطاب العملية التواصلية ، فتهتم بالمتكلم ومقاصده وتراعي حال السامع أثناء الخطاب.

فالتداولية تحتضن في تحليلها مجموعة من النظريات والمباحث منها: (السياق، أفعال الكلام، الإشاريات، الاستلزام الحواري، المقصدية، نظرية التلفظ، الحجاج).

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 1158.

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، القيرواني12/ 78.

المبحث الثاني:
البنية الحجاجية اللغوية

إن الحديث عن بنية الحجاج في الخطاب الحجاجي يقتضي النظر في مجمل الحجج التي يوظِّفها المتكلم لغاية الإقناع وحمل المتلقي على الإذعان، وتفحص أنواعها، وطريقة نظمها، وكيفية عرضها، والعلة من اختيار هذه الحجة دون غيرها، والتركيز على نوع دون آخر.

وعرف (مايير) الحجاج بقوله" هو دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيه "[1]، وقد ربط نظرية الحجاج بنظرية المساءلة، فالحجة عنده هي عبارة عن جواب أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمنيا من ذلك الجواب.

وقد سبقه الزمخشري بالحجاج القائم على السؤال والجواب، لكن السؤال عند الزمخشري صريح (حجة)، بواسطة السائل المفترض بواسطة التركيب (فإن قُلْتَ) فيعرض سؤاله على شكل حجاجي، ثم يجيب مدعما تلك الحجة الاستفهامية بقوله: (قُلْتُ) ويعرض الحجج للوصول للنتيجة الصريحة أو الضمنية.

فالسؤال عند (مايير) هو عبارة عن مشكلة تتطلب إجابة ، تكون هذه المشكلة موجودة فيها ، فالمتلقي في هذه الحالة يعتبر هو الذي يطرح الأسئلة من خلال الجواب المصرح به وهو الحجة ولكن بمساعدة معطيات مقامية.[2]

ويمكن أن نمثله كالتالي:

حجاج صريح ⟵ الحجة (وهو جواب مصرح به)

حجاج ضمني ⟵ سؤال (يكتشفه المتلقي بمعطيات مقامية)

بينما عند الزمخشري نمثله :

حجاج صريح ⟵ الحجة (وهو جواب مصرح به)

حجاج صريح ⟵ سؤال (يعرض على المتلقي غرض التأمل)

([1]) الحجاج في القرآن الكريم ، د. عبد الله صولة،ص 37.

([2]) ينظرنفسه، ص39.

والحجاج بالنسبة (لمايير) هو دراسة العلاقة بين ظاهر الكلام وضمنيه وقد ربط الحجاج بنظرية المساءلة فالحجة عنده ليست إلا جوابا أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمنيا عن ذلك الجواب، بينما الحجاج عند الزمخشري سؤال صريح تدار حوله المحاجة فهو بذاته حجة للوصول لنتيجة صريحة أو ضمنية في الخطاب.

وقد ربط (مايير) العلاقات الخطابية بالحجاج الأرسطي الذي قام بتقسيم وسائل الاستمالة الخطابية إلى ثلاثة (الإيتوس والباتوس واللوغس) وأعادها في قالب جديد زواج فيها بين علمَي أرسطو و أفلاطون وهي (الأخلاق والسؤال والجواب)، وبذلك ألحق" المُخاطَب بالمتكلم وتقليصه المسافة بينهما يسعى إلى إعلاء شأن المتكلم بإحلاله محلَّ العارف المُتَمكن مما يكسب الخطاب مصداقية ونجاعة، ويحمل المخاطب على التصديق بما جاء به المتكلم."[1]

بينما أبدع الزمخشري في خلق محاجة ، تتكون من (سائل ومجيب)، وفق ثنائية رائعة يسمعها أو يقرأها الطرف الثالث، وهو المتلقي الذي يذعن بالتسليم من الحجج المطروحة أمامه لتقبل النتيجة الصريحة أو الضمنية التي يستنبطها من خلال المحاجة الجدلية عن طريق السؤال والإجابة، في ثنائية حجاجية بين السائل المفترض (الزمخشري) والمتكلم الذي يجيب (الزمخشري أيضا)، والطرف الثالث المتلقي الذي يذعن بالتسليم.

يرى (مايير) أن طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب ما، كما يمكن أن يلطف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطَب يميل إلى الإقرار بجواب المتكلم ، وبإمكان المتكلم كذلك تعميق نقاط الاتفاق مع المخاطَب إذا ما كان مقرا بما يطرحه عليه من أجوبة.

أما الجواب فهو ينهض كذلك مثل السؤال بوظيفته الحجاجية القائمة على مفاوضة المسافة، فيبرز مواطن الاتفاق بين الطرفين أو يقلل من شأن تلك المختلف حولها، أما إذا كان هدف المتكلم تعميق المسافة بينه وبين مخاطبه فيعمد كما في

(1) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، البلاغة والحجاج ، نظرية المساءلة لميشال ماير، ص399.

السؤال إلى تضخيم مواطن الاختلاف وغض الطرف عن مواضع الاتفاق أو تأجيل النظر فيها.[1]

بينما طرح السؤال عند الزمخشري يجعل المتلقي يمعن في التفكير حول الموضوع المطروح، لأنه يثير قضية أو موضوع بطريقة مشوقة، ومن ثمَّ يجد ما يحتاجه من الإجابة عن ذلك السؤال من عرض للحجج والآراء للوصول للنتيجة الصريحة أو الضمنية المستنتجة.

وقد استخدم الزمخشري في بنيته الحجاجية السؤال بأدوات متنوعة من أدوات الاستفهام، كما استخدم أدوات الاستفهام مصحوبة بالتعجب، فكان سؤاله استفهامي (؟)، أو استفهامي استنكاري تعجبي(!)، وسيتضح ذلك مما سيلي:

ومن الشواهد تفسير الزمخشري لقوله تعالى: (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) البقرة/25

قال الزمخشري:" فإن قلت: هلا قيل: طاهرة؟ قلت: في مطهرة فعامة لصفتهن ليست في طاهرة وهي الإشعار بأنّ مطهرا طهرهن، وليس ذلك إلا الله عزّوجلّ المريد بعباده الصالحين أن يخولهم كلّ مزية فيما أعدّ لهم."[2]

واستخدم الزمخشري في بنيته الحجاجية في تفسيره للآية الكريمة السؤال (وهو عرض المحاجة بواسطة السائل المفترض (المتكلم وهو الزمخشري)، واختتم بعلامة الاستفهام)، ومن ثمَّ الجواب (يعرض فيه الحجج للوصول للنتيجة) التي يذعن بها المتلقي.

وقوله تعالى: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) البقرة/26.

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم وصف المهديون بالكثرة والقلة صفتهم، وقليل من عبادي الشكور وقليل ما هم الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة وجدت الناس أخير تقله!

---

(1) ينظر الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، دراسة تداولية، ابتسام بن خراف، ص 105.

(2) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 64.

إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال، و أيضا فإن القليل من المهديين كثير في الحقيقة، وإن قلوا في الصورة فسموا ذهابا إلى الحقيقة كثيرا."[1]

وقد اتبع طريقة أخرى نلاحظها في تفسيره للآية السابقة، فقد طرح سؤالا استفهاميا (وهو عرض المحاجة وفيها عصف ذهني للمتلقي خرج من الاستفهام إلى التعجب)، فقد نوّع الزمخشري في بنيته بواسطة الاستفهام (؟) أو التعجب (!)، ومن ثمَّ الجواب، ويعرض فيه الحجج للوصول للنتيجة التي يذعن بها المتلقي.

الاستفهام عند الزمخشري:

الاستفهام بنية طلبية فهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما بأداة خاصة طلبا (للتصور) وهو طلب إدراك المفرد نحو قولنا: أمحمد في البيت؟، وأما (بالتصديق) وهو طلب إدراك النسبة الحكمية بين المسند والمسند إليه، بالإيجاب (نعم) أو بالسلب (لا)،نحو قولنا: هل تصوم الحائض؟، وأدواته ثلاثة أقسام؛ قسم يستفهم به عن التصور والتصديق، وهو همزة الاستفهام، وقسم ثان يستفهم به عن التصديق فقط، وهو الحرف هل، وقسم ثالث يستفهم به عن التصور فقط، وهو سائر أدوات الاستفهام مثل: (ما، من، أيُّ، كم، كيف، أين، أنى، متى، أيان).[2]

أما عن شروط إجراء الاستفهام على الأصل فهي؛ طلب حصول في الذهن، فالاستفهام بنية طلبية، ويقول الدكتور محمد عبد المطلب والفرق بينه وبين الأمر هو في" اتكائها على حركة المعنى في البنيتين، والربط بين المستوى السطحي والمستوى العميق فيهما، وهذا الربط هو الذي يكشف التغاير في حركة المعنى، إذ إن بنية الأمر تتجه فيها هذه الحركة من الذهن إلى الخارج، أي من العمق إلى السطح، أما بنية الاستفهام فإن الحركة فيها عكس ذلك، حيث تتجه من الخارج إلى الذهن، أي من السطح إلى العمق."[3]

وهناك معانى مباشرة أصلية، ومعانى إضافية، وتخرج المعاني الأصلية إلى المعاني الإضافية الجديدة بواسطة ما سمي بالاستلزام الحواري في نظرية أفعال

([1]) نفسه، ص67.

([2]) ينظر مفتاح العلوم، السكاكي، ضبطه وشرحه: نعيم زرزور، ص308.

([3]) البلاغة العربية، قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، ص285.

الكلام، والذي هو من مقتضيات العمل الحجاجي، أو ما عبر عنه بالاستراتيجية التلميحية ضمن مفهوم استراتيجيات الخطاب في التداولية.

وقد يخرج الاستفهام إلى: النفي، والتعجب، والتمني، والتقرير، والتعظيم، والتحقير، والاستبطاء، والاستبعاد، والإنكار، والتهكم، والتسوية، والوعيد، والتهويل، والتشويق، والأمر، والنهي، والعرض، والتحضيض.

وقد لاحظنا فيما سبق في تفسير الزمخشري خروج الاستفهام إلى التعجب، كما سنرى خروجه إلى العرض في تفسير قوله تعالى:(يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ) آل عمران/13

قال الزمخشري:" فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال:(وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ) الأنفال/ 44 قلت: قللوا أولا في أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) الجن/ 39 وقوله تعالى:(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) الصافات/ 24 وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقامة الواحد الاثنين في قوله تعالى: (فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) الأنفال/ 66 بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) الأنفال/65 ، ولذلك وصف ضعفهم بالقلة ؛ لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة أضعاف، وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم."[1]

إن طرح الأسئلة في الخطاب وسيلة هامة من وسائل الإثارة وإلزام المتلقي باتخاذ موقف ما، ومما على يدل أهمية البنية الحجاجية الاستفهامية تواجدها في كل خطاب في بنيته السطحية أو في بنيته العميقة أيضا، فكل خطاب لا بد وأن يثير أسئلة تستدعي بالضرورة جوابا ومن ثمَّ حجاجا .

فالحجاج قائم أساسا على سؤال وجواب مهما اختلفت بنيته التركيبية وآليته الظاهرة في سطح الخطاب، فسياق مقامات الخطاب يستلزم مثل هذا الحوار الحجاجي الذي لا يظهر، و إنما يتضمنه

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 163.

وهو ما عبر عنه الدرس التداولي المعاصر بالاستلزام الحواري، ومهما " تكن بنية الاستفهام؛ ظاهرة أم مضمرة، حقيقية أم استلزامية، فإن لها ذلك التأثير الذهني في المتلقي، فالاستفهام يستثير قضية تقوم ذاكرة المتلقي بإبراز المعرفة المشتركة مع المتكلم ثم يترجم إلى فعل سلوكي والمتمثل في تقديم جواب." [1]

والزمخشري وفق في اعتماد بنية السؤال والجواب في تفسيره، فالبنية الاستفهامية وسيلة ناجعة في جعل المتلقي يشارك المتكلم في الصناعة الحجاجية، وقد استخدم الزمخشري العديد من أدوات الاستفهام، سنذكر البعض، ومنها الآتي:

- هل:

وهي مختصةٌ" بطلبِ التصديقِ" [2]، وقال الجياني:" وأما هل فيستفهم بها عن التصديق الموجب لا غير."[3]، ويرادُ بها "معرفةُ وقوع النسبةِ وعدم وقوعها، ولذا لا يذكرُ معها معادلٌ، كما يكون جوابها: (نعمْ) أو (لا)."[4]

وتفسير الكشاف زاخر بالشواهد على أداة الاستفهام (هل)، ونذكر منها: تفسير قوله تعالى:

(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) يوسف/18

قال الزمخشري:" فإن قلت: هل يجوز أن تكون حالا متقدمة؟ قلت: لا؛ لأن الحال المجرور لا تتقدم عليه (سَوَّلَتْ) سهلت من السول وهو الاسترخاء أي سهلت (لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) عظيما ارتكبتموه من يوسف وهونته في أعينكم، استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص، أو أوحي إليه بأنهم قصدوه (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) خبر أو مبتدأ لكونه موصوفا، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل."[5]

- ما:

([1]) دائرة الأعمال اللغوية، شكري المبخوت، ص197.

([2]) الكليات، أبو البقاء، 3/ 131.

([3]) شرح تسهيل الفوائد، الجياني، 110/4.

([4]) الخلاصة في علوم البلاغة ، علي بن نايف الشحود 12/1.

([5]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 508.

وهي مستخدمة بكثرة عند الزمخشري، وهي مختصة بطلب التصور، وتكونُ " للاستفهام عن غير العقلاءِ وهي أقسام: الأول: إيضاحُ الاسمِ، الثاني: بيانُ حقيقةِ الشيء، الثالث: بيانُ صفةِ الشيءِ."[1]

ومن الشواهد على الأداة (ما) تفسير الزمخشري لقوله: (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ) يوسف/18

قال الزمخشري:" فإن قلت: (عَلَى قَمِيصِهِ) ما محله؟ قلت: محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجاءوا فوق قميصه بدم كما تقول: جاء على جماله بأحمال."[2] وهنا (ما) تبين صفة الشيء.

بينما في تفسير الزمخشري لقوله تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ) النساء / 11

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما العلة في أن كان لها ثلث ما بقي دون ثلث المال؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن الزوج إنما استحق ما يسهم له بحق العقد لا بالقرابة فأشبه الوصية في قسمة ما وراءه والثاني أنّ الأب أقوى في الإرث من الأم بدليل أنه يضعف عليها إذا خلصا ويكون صاحب فرض وعصبة وجامعا بين الأمرين، فلو ضرب لها الثلث كاملا لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها ألا ترى أن امرأة لو تركت زوجا و أبوين فصار للزوج النصف، وللأم الثلث، والباقي للأب حازت الأم سهمين، والأب سهما واحدا، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكرين.(فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ) الإخوة يحجبون الأم عن الثلث وإن كانوا لا يرثون مع الأب فيكون لها السدس وللأب خمسة الأسداس، ويستوي في الحجب الاثنان فصاعدا."[3]

وأداة الاستفهام (ما) في الآية السابقة لبيان حقيقة الشيء، فتبين حقيقة حكم من أحكام المواريث، وهو نصيب الأم، وهو (الثلث) من الميراث.

- ماذا:

ومن الشواهد على ذلك تفسير قوله تعالى: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) ص/24

([1]) الخلاصة في علوم البلاغة ، علي بن نايف الشحود 12/1.

([2])الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا ، ص508.

([3]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا ، ص224.

قال الزمخشري:" فإن قلت: ماذا أراد بذكر الخلطاء في ذلك المقام؟ قلت: قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه في خليطه وأنّ له في أكثر الخلطاء أسوة."[1]

وأداة الاستفهام (ماذا) هي اسم موصول بعد (ما) و(مَنْ) الاستفهاميَّتين مثل: ماذا تقرأ؟، مَنْ ذا أعطاك الكتاب؟ [2]، فهي (كلمة وظيفيَّة) أداة استفهام مركّبة من (ما) الاستفهاميّة، والموصول الاسمي (ذا) مثل: ماذا قدَّمت لآخرتك؟، ماذا قلت؟ [3]

- لماذا:

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ، لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) الكهف 37: 38

قال الزمخشري:" فإن قلت: هو استدراك لماذا؟ لقوله: (أكفرت) قال لأخيه: أنت كافر بالله، مؤمن موحد كما تقول: زيد غائب لكن عمرًا حاضر."[4]

(لِماذا) كلمة وظيفيَّة: مركّبة من لام الجرّ التي يُراد بها التّعليل و(ما) الاستفهاميّة والموصول الاسمي (ذا) مثل: لماذا تأخَّرت عن الموعد؟، تأخرت لماذا؟.[5]

ونخلص أن أداة الاستفهام (ما) خرج منها (ماذا) مع تركيب (ذا) الموصولة، كما خرج منها (لماذا)، وهي عبارة عن (لام التعليل) مركب معها أداة الاستفهام (ما) ثم (ذا) الموصولة، وقد استخدم الزمخشري جميعها، ولكن الغالبية والأكثرية في الاستخدام أداة الاستفهام (ما).

- كيف:

وهي من الأدوات المستخدمة بكثرة في تفسير الزمخشري، وهي" موضوعةٌ للاستفهامِ عن الحالِ" [6]

---

(1) نفسه، ص 924.

(2) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، 800/1.

(3) ينظر نفسه 2060/3.

(4) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 620.

(5) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، 2034/3.

(6) الخلاصة في علوم البلاغة ، علي بن نايف الشحود، 12/1.

قال أبو البقاء: أدوات الاستفهام الهمزة و(هل) و (ما) و (من) و (أي) و(كم) و(كيف) و (أين) و (أنى) و (متى) و (أيان) وما عدا الهمزة نائب عنها وأما أدوات الاستفهام بالنسبة إلى التصديق والتصور فثلاثة أقسام مختص بطلب التصور وهو (أم) المتصلة وجميع أسماء الاستفهام ومختص بطلب التصديق وهو (أم) المنقطعة و (هل) ومشترك بينهما وهي الهمزة.[1]

ومن الشواهد على أداة الاستفهام (كيف) في البنية الحجاجية تفسير الزمخشري لقوله تعالى:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) آل عمران/ 59

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم بغير أب وأم؟ قلت: هو مثيله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دون الطرف الآخر من تشبيه به؛ لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأن الوجود من غير أب أم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه."[2]

- أيّ:

من أدوات الاستفهام (أيٌّ) وهي" موضوعةٌ للاستفهام عن تمييزِ أحد المتشارِكينِ في أمرٍ يعمُّهما: شخصاً، أو زماناً أو مكاناً، أو حالاً، أو عدداً، عاقلاً أو غيره."[3]

ومن الشواهد في الكشاف، قال الزمخشري:" فإن قلت: أيّ فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى.."[4]

دخول حروف الجر على أدوات الاستفهام عند الزمخشري:

([1]) ينظر الكليات، أبو البقاء، 135/1.

([2]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 174.

([3]) الخلاصة في علوم البلاغة ، علي بن نايف الشحود، ص 12/1.

([4])الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 551.

الحرف: ما دلّ على معنى في غيره ويحتاج إلى اسم أو فعل، وحروف الجرّ: ما وضع للإفضاء بفعل أو معناه إلى ما يليه. [1]، واستخدم الزمخشري أداة الاستفهام (ما) مسبوقة بحروف الجر ومتصلة به مثل: (اللام، الباء، في، إلى)، وقال عبد الله العنزي: حروفُ الجرّ هي: الباءُ، اللَّامُ، الكافُ، الواوُ، التَّاءُ، مِنْ، عَنْ، في، مُذْ، رُبَّ، إلي، على، مُنْذُ، خَلا، عَدا، حتَّى، حاشا.[2]

حروف الجر المتصلة:

- لِمَ: (حرف الجر اللام، ما الاستفهامية)

ومن الشواهد تفسير قوله تعالى: (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) الإسراء/ 14

قال الزمخشري:" فإن قلت: لِمَ ذكر (حَسِيبًا) ؟ قلت: لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير؛ لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجال، فكأنه قيل: كفى بنفسك رجلا حسيبا، ويجوز أن يتأوّل النفس بالشخص كما يقال: ثلاثة أنفس."[3]

وقال ابن الحاجب:" (اللاّم) للاختصاص، والتّعليل، وزائدة، وبمعنى (عن) مع القول، وبمعنى الواو في القسم للتّعجّب. و(ربّ) للتّقليل، ولها صدر الكلام مختصّة بنكرة موصوفة على الأصحّ، وفعلها ماض محذوف غالبا، وقد تدخل على مضمر مبهم مميّز بنكرة منصوبة، والضّمير مفرد مذكّر، خلافا للكوفيّين في مطابقة التّمييز، وتلحقها (ما) فتدخل على الجمل."[4]

ونخلص مما سبق استخدام الزمخشري لحروف الجر مسبوقة لأدوات الاستفهام مثل: (ما)، وقد حذفت ألف (ما) بدخول حرف الجر (اللام) عليها، الذي يفيد هنا الاختصاص، حيث خص مع أداة الاستفهام (ما) في السؤال الاستفهام عن ذكر لفظ (حَسِيبًا).

- بم: (حرف الجر الباء ، ما الاستفهامية)

([1]) الكافية في علم النحو، ابن الحاجب، 51/1.

([2]) ينظر المنهاجُ المختَصر في عِلمي النَّحو والصَّرف، عبد الله العنزي، 1/ 115.

([3]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 592.

([4]) الكافية في علم النحو، ابن الحاجب، 51/1.

ومن الشواهد على ذلك تفسير قوله تعالى:(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/37.

قال الزمخشري:" فإن قلت: بم اتصل قوله: (لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/37؟ قلت: هو: داخل في حيز الاستدراك و أنه قال: ولكن كان تصديقا وتفصيلا منتفيا عنه الريب كائنا من رب العالمين، ويجوز أن يراد، ولكن كان تصديقا من رب العالمين وتفصيلا منه لا ريب في ذلك، فيكون من رب العالمين متعلقا لتصديق وتفصيل أم يكون لا ريب فيه اعتراضا كما تقول: زيد لا شك فيه كريم."[1]

وقال ابن الحاجب: " (الباء) للإلصاق، والاستعانة، والمصاحبة، والتّعدية، والمقابلة، والظّرفيّة، وزائدة في الخبر في الاستفهام."[2]

ونخلص استخدام الزمخشري لحرف الجر (الباء) مسبوق لأداة الاستفهام (ما)، حيث أفادت هنا الإلصاق، فالاستفهام عن اتصال قوله تعالى: (لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بلفظ (الْقُرْآنُ)، فهو استدراك لانتفاء الريب عنه.

- فيم: (حرف الجر في، أداة الاستفهام ما)

ومن الشواهد على ذلك تفسير قوله تعالى:(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) إبراهيم/23

قال الزمخشري:" فإن قلت: فيم يتعلق في القراءة الأخرى وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتئم قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله بإذن ربهم: بما بعده أي: (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) بإذن ربهم يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم."[3]

وقال ابن الحاجب:" (في) للظّرفيّة " [4] مكانية أو زمانية، كما تفيد التعليل، وقال الدكتور أحمد مختار عمر: (في) "حرف جرّ يفيد السَّببيَّة" [5]

([1]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 464.

([2]) الكافية في علم النحو، ابن الحاجب، 51/1.

([3]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 550.

([4]) الكافية في علم النحو، ابن الحاجب، 51/1.

([5]) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، 1756/3.

ونخلص تنوع دخول حروف الجر على أداة الاستفهام (ما) عند الزمخشري في تفسيره الكشاف، حيث وفق في استخدام ذلك، فقد قامت محاجته على تعليل القراءة الأخرى في تفسيره للآية السابقة.

- إلام: (حرف الجر إلى ، ما)

قال الزمخشري:" فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: (وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) البقرة/25 ؟ قلت: إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعا. لأن قوله: هذا الذي رزقنا من قبل انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين، ونظيره قوله تعالى: (إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا) النساء / 135. أي بجنسي الغني والفقير، لدلالة قوله: (غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا) على الجنسين، ولو رجع الضمير إلى المتكلم به لقيل: أولى به على التوحيد."[1]

وقال الدكتور أحمد مختار عمر: (إلى) حرف جَرّ يفيد انتهاء الغاية الزمانيَّة أو المكانيَّة، و بمعنى عند وللمعيّة أو الإضافة و بمعنى على و بمعنى في و بمعنى اللاّم وحرف جَرّ زائدٌ للتوكيد [2]، ونخلص دخول حرف الجر (إلى) على أداة الاستفهام (ما) ، وتفيد انتهاء الغاية الزمانية.

فاستفسار السائل المفترض إلى ما ينتهي إليه الضمير في قوله: (وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا)، فجاء اختيار الزمخشري لحرف الجر (إلى) مناسبا للمقام.

ونخلص أن الزمخشري استخدم محاجته القائمة على السؤال والجواب أدوات الاستفهام المتعددة، كما استخدم أدوات الاستفهام مسبوقة بحروف الجر كما رأينا، وسبقت أيضا بحروف المنفصلة، وهو ما سنتناوله في الصفحات القادمة، وكل ذلك يدل على تطويع الكلام ليناسب المقام.

- حروف الجر المنفصلة:

تأتي أداة الاستفهام مسبوقة بحروف جر منفصلة بحسب احتياج المقام لذلك، ومن الشواهد على ذلك:

- إلى مَنْ : (حرف الجر إلى ، أداة الاستفهام مَنْ):

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 63.

(2) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، 115/1.

قال الزمخشري:" فإن قلت: فالضمير في قوله: (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا) النساء/ 12 إلى مَنْ يرجع حينئذ؟ قلت: إلى الرجل وإلى أخيه أو أخته وعلى الأول إليهما."[1]

وقد استخدم الزمخشري حرف الجر (إلى) قبل أداة الاستفهام (أين) في بنيته الحجاجية؛ لتلاءم السياق، حيث أفاد حرف الجر (إلى) الانتهاء، و(مَنْ) " موضوعةٌ للاستفهامِ عن العقلاء." [2]

وجاء هذا التركيب (إلى من) متوافقا مع الإجابة، فحرف الجر (إلى) يفيد الانتهاء، وجاء بعده أداة الاستفهام (مَنْ) التي تسأل عن العقلاء.

- مِنْ أين: (حرف الجر مِنْ ، وأداة الاستفهام أين)

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَاللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ...) البقرة/ 27

قال الزمخشري:" فإن قلت: مِنْ أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين، ومنه قول ابن التيهان، في بيعة العقبة: يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالا ونحن قاطعوها فنخشى أن الله عزوجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه."[3]

واستخدم الزمخشري في السؤال (مِنْ أين) حرف الجر (مِنْ) يستخدم للابتداء، والتّبيين، والتّبعيض، وزائدة.[4]، وأداة الاستفهام "(أينَ) موضوعةٌ للاستفهام عن المكانِ."[5]

فالتركيب (مِنْ أين) مستخدم في الاستفهام بمعنى (كيف)، وحروف الجر تدخل على بعض أدوات الاستفهام، وهناك أدوات لا تقبل دخولها عليها.

وقال أبو البقاء: فـ (أين) تدخل عليها حروف مثل: من أين؟ وإلى أين؟ والجواب أن (أين) لما كانت سؤالًا عن الأمكنة، ونائبة عن اللفظ بها، وكانت الأمكنةُ المنوبُ عنها

([1]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 225.

([2]) الخلاصة في علوم البلاغة ، علي بن نايف الشحود، ص 12/1.

([3]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 68.

([4]) الخلاصة في علوم البلاغة ، علي بن نايف الشحود، ص 12/1.

([5]) ينظر الكافية في علم النحو، ابن الحاجب، 55/1.

مما تدخلها حروفُ الجر، فتقول: من الجامع، إلى الجامع جار أن تدخل على ما ناب عنها وقام مقامَها، وأمّا (كَيْفَ) فإنما هي سؤال عن الأحوال، والأحوالُ لا تدخل عليها حروفُ الجر.[1]

ونخلص أن بعض التراكيب من حروف الجر وأدوات الاستفهام تخرج إلى معنى أداة أخرى من الأدوات التي لا تقبل حروف الجر عليها مثل الشاهد السابق ، فـ(من أين) بمعنى (كيف).

- مِنْ أي: (مِنْ، أي الاستفهامية، أم)

أداة الاستفهام (أي) تعبر عن تمييزِ أحد المتشارِكينِ في أمرٍ يعمُّهما: شخصاً، أو زماناً أو مكاناً، أو حالاً، أو عدداً، عاقلاً أو غيره، وقال الدكتور أحمد مختار عمر هي: اسم استفهام يطلب تحديد شيء من جملة أشياء، وقد يحمل معنى الاستبعاد.[2]

ومن الشواهد تفسير قوله تعالى: (الم) البقرة/ 1

قال الزمخشري:" فإن قلت: من أي قبيل هي من الأسماء المعربة ؟ أم مبنية؟ قلت: بل هي أسماء معربة و إنما سكنت سكون زيد وعمرو، وغيرهما من الأسماء؛ حيث لا يمسها الإعراب لفقد مقتضيه وموجبه. والدليل على أنّ سكونها وقف وليس ببناء أنها بنيت، لحذى بها حذو كيف، و أين، وهؤلاء، ولم يقل: ص، ق، ن مجموعا فيها الساكنين." [3]

وقد سبقت بحرف الجر(مِنْ) يستخدم للابتداء، والتّبيين، والتّبعيض، وزائدة، وقد سبقت أداة الاستفهام (أي) بحرف الجر(مِنْ) وهي تفيد الابتداء، وقد استبعد في السؤال (من أي قبيل هي من الأسماء المعربة؟) ثم أكد بعد ذلك في الإجابة عن السؤال، بما استبعده ليشارك المتلقي معه هذا التصور.

وقد استخدم في السؤال (أَمْ)، وباستخدامها تكون عالما بوجود أحد الاختيارين، فتقول: (أزيد أفضل أم عمرو)؟ [4]

([1]) ينظر شرح المفصل للزمخشري، أبو البقاء، 141/3.

([2]) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، 146/1.

([3]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 31.

([4]) ينظر المسائل النحوية والصرفية في شرح أبي العلاء، 85/3.

وقال الدكتور أحمد مختار عمر (أَمْ) حرف عطف للمعادلة بعد همزة الاستفهام، وقد تحذف الهمزة، وهو يفيد الاتصال ويقع بين شيئين مرتبطين ارتباطًا وثيقًا وهذا النوع يتطلَّب جوابًا بذكر أحد المعادلين.[1]

وقد استخدم الزمخشري في بنيته الحجاجية القائمة على السؤال (السائل المفترض) العديد من أدوات الاستفهام، مثل: (هل، كيف، ما)، كما استخدم حروف الجر قبل الأدوات مثل: (من أين، من أي، إلى من) وغير ذلك، و اتصلت أداة الاستفهام (ما) بالكثير من أدوات الجر مثل: (بم، إلام، فيم، لِمَ) كما رأينا، كل هذا التنوع من أجل الوصول لإقناع المتلقي من خلال العرض.

خروج الاستفهام إلى التحضيض عند الزمخشري:

- هلا:

استخدم الزمخشري حروف التحضيض في كشافه كثيرا، ومنها تفسير قوله تعالى: (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) يوسف/5

قال الزمخشري:" فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك كما قيل: (فَكِيدُونِي)هود/5 قلت: ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد و أبلغ في التخويف وذلك نحو: فيحتالوا لك ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر(عَدُوٌّ مُبِينٌ) ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ولقوله:(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) الأعراف/16 فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ليورط من يحمله ولا يؤمن أن يحملهم على مثله."[2]

وقال ابن الحاجب:" حروف التّحضيض:(هَلاّ)، و(ألاّ)، و(لَوْلاَ)، و(لَوْمَا)، لها صدر الكلام، ويلزم الفعل لفظا أو تقديرا."[3]

([1]) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، 1/ 115.

([2]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 504.

([3]) الكافية في علم النحو، ابن الحاجب، 55/1.

وقال الدكتور أحمد مختار عمر التحضيض هو: تحريض على عمل الشَّيء باستعمال حرف من حروف التَّحضيض ويشترط فيها أن تدخل على الفعل المضارع إذا أُريد به التَّحضيض، أما إذا دخلت على الماضي فإنّها تفيد اللَّوم والتَّوبيخ والإنكار.[1]

وقد استخدم الزمخشري أسلوب التحضيض كثيرًا في كشافه، وكل استخدامه لحرف التحضيض (هَلاّ) من حروف التحضيض، ومن الشواهد الدالة على ذلك تفسير قوله تعالى:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) الفجر/ 16

قال الزمخشري: فإن قلت:" هلا قال فأهانه وقد عليه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه. قلت: لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلا من غير سابقة، وأما التقدير فليس بإهانة له لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ولكن تركًا للكرامة، وقد يكون المولى مكرمًا لعبده مهيمنًا له وغير مكرم ولا مهين. وإذا أهدى لك زيد هديةً قلت: أكرمني بالهدية، ولا تقول أهانني ولا أكرمني إذا لم يهد لك."[2]

ومن الشواهد الأخرى تفسير قوله تعالى: (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) الكافرون/ 3

قال الزمخشري:" فإن قلت: فهلا قيل: ما عبدت، كما قيل: ما عبدتم؟ قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت." [3]

ونخلص أن الزمخشري استخدم في السؤال الحجاجي أدوات كثيرة منها ما عبر عن الاستفهام، ومنها ما خرج إلى التقرير والتعريض والتحضيض، وقد اكتفينا بذكر بعض الشواهد للتنويه على ذلك.

خروج الاستفهام إلى التقرير:

(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) يوسف/ 66

قال الزمخشري:" فإن قلت: أخبرني حقيقة هذا الاستثناء فيه إشكال؟ (أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) مفعول له والكلام المثبت الذي هو قوله: (لتأتنني به) في تأويل النفي معناه:

([1]) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، 1/ 515.

([2]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 1201.

([3]) نفسه، ص 1225.

لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم فهو استثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده فلابد من تأويله بالنفي، ونظيره من الإثبات المتأول بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت تريد: ما أطلب منك إلا الفعل (على ما نقول) من طلب الموثق وإعطائه (وكيل) رقيب مطلع."[1]

وقال الجرجاني: التقرير" بيان المعنى بالعبارة "[2] ، وقد ينصرف الاستفهام إلى التقرير فالكلام إذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسئول كان ذلك أبلغ وأوقع، وبيان التقرير" هو توكيد الكلام بما يقطع احتمال المجاز والتخصيص"[3]

ونخلص من تفسير الزمخشري للآية الكريمة حمْلُ المُخَاطَب على الإقرار والاعتراف بأمر قَد استَقر عِنده ثبوته أو نفيه، والثابت عند أن هناك إشكالية في هذا الاستثناء، ويليه الشيء الذي يقرره الزمخشري، وهو لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم فهو استثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده فلابد من تأويله بالنفي.

- تقدير أداة الاستفهام :

- فإن لم (فإن الشرطية ، لم النافية):

كما دخلت أداة الشرط (إن) على (لم) النافية كما في تفسير قوله تعالى: (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) النساء/ 6

قال الزمخشري: "فإن قلت: فإن لَم يؤنس منه رشد منه إلى حدّ البلوغ؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأن مدة بلوغ الذكر بالسن ثماني عشرة سنة، فإذا زادت عليها سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان؛ لقوله عليه السلام: (مروهم بالصلاة لسبع) دفع إليه ماله أونس منه الرشد أو لم يؤنس، وعند أصحابه لا يدفع إليه أبدا إلا بإيناس الرشد."[4]

([1]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 523.

([2]) التعريفات، الجرجاني، 89/1.

([3]) الكليات، أبو البقاء، 1/ 339.

([4]) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 220.

وقال ابن الحاجب: " فـ (إن) للاستقبال وإن دخل على الماضي. "[1]، وقد دخلت (إن) الشرطية على (لم) النافية، لتدل على الاستقبال، والسؤال مقدرهنا (ما / ماذا يحدث ؟)، ويفهم من السياق، وهو كالآتي (فإن لم يؤنس منه رشد منه إلى حدّ البلوغ ما يحدث؟).

ونخلص أن أدوات الاستفهام قد تأتي مقدرة، وتفهم من السياق، والأمثلة والشواهد كثيرة في تفسير الزمخشري، ومنها الشاهد السابق، فـ (إن) الشرطية للاستقبال، وقد دخلت على (لم) النافية، والسؤال مقدريُفهِم من السياق تقديره (ما / ماذا يحدث؟).

التركيب الاستفهامي ودوره الحجاجي:

استخدم الزمخشري التركيب الاستفهامي في حجاجه، وقد تناولنا أمثلة وشواهد على ذلك آنفا، وقد اعتمد في بنيته الحجاجية على طرح السؤال بواسطة السائل المفترض، وتعددت أدوات الاستفهام عنده، كما سبقت أدوات الاستفهام عنده بحروف الجر متصلة ومنفصلة، بحسب السياق والمقام.

ويعد التركيب الاستفهامي من أهم التراكيب الانشائية مقدرة في توجيه الخطاب وجهة حجاجية ما، فإن طرح السؤال يعني ضرورة الحجاج؛ وعندما يوضع السؤال يوضع معه في الوقت نفسه رأي مخالف أو مناقشة ما، ومن ثمة حجاج، والحجة إنَّما تعني الإتيان برأي مخالف أو موقف حول سؤال ما، وهكذا فالحجاج ينبثق من نظرية التساؤل ومن صلبها.[2]

وينبغي التمييز بين نوعين من الاستفهام، وهما: [3]

- الاستفهام الحجاجي: وهذا النمط يستلزم تأويل القول المراد تحليله انطلاقاً من قيمته الحجاجية.

ومن الشواهد على ذلك تفسير قوله تعالى: (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) النمل/ 9

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 220.

(2) ينظر الخطاب الحجاجي لأهل البيت في كتاب الاحتجاج، دراسة تداولية، عبد الحسن علي حبيب، ص 213.

(3) ينظر نفسه، 213؛ 214.

قال الزمخشري:" فإن قلت: فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه؟ قلت: هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة،(وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) النمل/8، تعجيب لموسى (عليه السلام) من ذلك و إيذان بأن ذلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون."[1]

ونستخلص من تفسير الآية الكريمة تأويل القول المراد تحليله، وهو قوله تعالى: (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) انطلاقا من قيمته الحجاجية، فهي بشارة له، بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة.

- الاستفهام الاعتيادي: يقصَد من ورائه إلى معرفة صدق الخبر أو كذبه، وقد يوظِّفه المتكلم ويصبح عنصراً من عناصر العلاقة الحجاجية، ويكون له حينئذ بعداً إقناعياً وطابعاً حجاجياً.

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ) التوبة/80

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف خفي على رسول (صلى الله عليه وسلم) وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار؟ كيف وقد تلاه بقوله: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا) الآية، فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: رخص لي ربي فسأزيد على السبعين قلت: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهارا لغاية رحمته ور أفته على من بعث إليه كقول إبراهيم ليه السلام: (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) إبراهيم/36 وفي إظهار النبي (صلى الله عليه وسلم) الر أفة والرحمة لطف لأمته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض."[2]

ونستخلص مما سبق معرفة صدق الخبر أو كذبه، فالاستفهام عن حال النبي (صلى الله عليه وسلم) هل خفي عليه أن العدد (سبعين) كثرة، بالتأكيد (لا)، ولكن نستنتج رحمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أمته.

فالاستفهام بنية طلبية، وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما بأداة خاصة طلبا للتصور أو التصديق، ولقد حضر الثنائي (السؤال، الجواب) في الخطاب الحجاجي

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، 776.

(2) نفسه، ص 443.

عند الزمخشـري، وكان له الدور في فرض إجابة محددة على المخاطَب يمليها المقتضى الناشئ عن الاستفهام.

أشكال بناء الحجاج في الخطاب:

من حيث شـكل بناء الحجاج :هناك نوعان من خاصـية الشـكل من النصـوص الحجاجية:[1]

- النوع الأول :عند التطرق لأطروحتين أو قضـيتين تمثلان إشـكالا، ويبنى منهما حجاج على

أساس(مع أو ضد) إحدى القضيتين على النحو التالي:

- معطاة (مقدمة تطرح إشكاليتين أ و ب).
- حجج تخدم (تدعم) أ.
- حجج تخدم (تدعم) ب.
- نتيجة (ظاهرة أو مضمرة).

القضـية الأولى ⟵ مقدمات + الدعامة الدعوى (النتيجة ظاهرة أو مضمرة)

تبرير(حجج وأدلة للقضـية الأولى) وتمثل مع أو ضـد إحدى القضيتين

القضـية الثانية ⟵ مقدمات + الدعامة الأولى أو الثانية.

تبرير(حجج وأدلة القضية الثانية)

ومن الشواهد على ذلك تفسير الزمخشري لقوله تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) آل عمران/12

قال الزمخشـري:" فإن قلت: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سـيجري عليهم من الغلبة والحشـر إلى جهنم، فهو إخبار بمعنى سـيغلبون ويحشـرون، وهو الكائن من نفس المتوعد به، والذي يدل عليه

[1] ينظر البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل أنموذجا، الحواس مسعودي، 232:231.

اللفظ، ومعنى القراءة بالياء: الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه، كأنه قال: أدّ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك: سيغلبون ويحشرون."[1]

ونخلص من تفسير الزمخشري عقد مقارنة بين قضيتين تمثلان إشكالا، فيعرض الزمخشري الفرق بين قراءتين، وهي (بالتاء) كما في الآية الكريمة (سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ)، والقراءة الأخرى (بالياء) وهي (سَيغْلَبُونَ وَيحْشَرُونَ)، ويبين الفرق في المعنى بين القراءتين.

فيعرض مقدمات القضية الأولى: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم.

الدعامة (حجج): فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون، وهو الكائن من نفس المتوعد به، والذي يدل عليه اللفظ.

مقدمات القضية الثانية: ومعنى القراءة بالياء: الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه.

الدعامة (حجج): كأنه قال: أدّ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك: سيغلبون ويحشرون.

النوع الثاني : ويتمثل في الدفاع عن أطروحة (معطاة أو مقدمة) بالحجج، ويمكن أن تمثل

لها بالرسم التالي:

الأطروحة + مقدمة ⟵ الحجج ⟵ النتيجة

القديمة (المعطيات) (الأطروحة الجديدة)

أو القضية القديمة: الدعوى

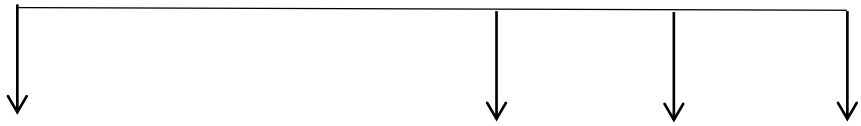

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 162.

مقدمات تبرير الدعامة مؤشر الحال

التحفظات والاحتياطات
أدلة
شواهد
حجج

النتيجة تمثل:
القضية الجديدة

ومن الشواهد الدالة على تفسير الزمخشري لقوله تعالى: (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) المائدة/ 3

قال الزمخشري:" فإن قلت: بم اتصل قوله: (فَمَنِ اضْطُرَّ)؟ قلت: بذكر المحرمات، وقوله: (ذَلِكُمْ فِسْقٌ) المائدة/3اعتراض أكد به معنى التحريم، وكذلك ما بعده، لأن تحريم هذه من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل، ومعناه: فمن اضطر إلى الميتة أو إلى غيرها (فِي مَخْمَصَةٍ) في مجاعة (غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ) غير منحرف إليه، كقوله: (غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ) البقرة/ 173 (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) لا يؤاخذه بذلك."[1]

ونخلص من تفسير الزمخشري للآية الكريمة:

المقدمات: الدفاع عن أطروحة مقدمة، وهي (بم اتصل قوله: (فَمَنِ اضْطُرَّ) ؟

الدعامة: ساق الزمخشري فيها الحجج والأدلة والشواهد (الاضطرار إلى الميتة أو غيرها كالمجاعة.

مؤشر الحال: التحريم لأن تحريمها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل.

التحفظات: عدم الانحراف عند الاضطرار، ولا باغ لذة متجاوز سَدَّ الجَوعة.

النتيجة: جواز أكل الميتة في حالة المجاعة بشرط عدم التجاوز والانحراف، والله تعالى غفور لا يؤاخذه بذلك.

(1) الكشاف، الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، ص 278..

الخاتمة

وفيها أُجمل أهم نتائج البحث على النحو التالي:

- الزمخشري طرح افتراضا وسؤالا بقوله فإن قلت؟ ثم يجيب بقوله قلت، وهذا ما يسمى بمنهج (المقاولة) والتي هي مفاعلة أي اشتراك بين طرفين أو أكثروكل هذا ينم عن وعي الزمخشري بالكثير من المباحث التي تمثل السمة الجوهرية في الدرس اللغوي.

- حضور الإشاريات الشخصية في عرض الزمخشري للمحاجة، فإن قُلْتَ: ضمير المخاطب (أنتَ) السائل المفترض، بينما في الإجابة قُلْتُ: ضمير المتكلم (أنا)، وهذا هو الغالب في كشافه.

- تناول الزمخشري السؤال في أغلب الكشاف بالاستفهام (؟)، وفي بعض الأحيان بالتعجب(!).

- حضور الإشاريات الزمانية كلها فدلت على زمن الماضي والمضارع كما لم تخلو من الإشاريات المكانية إلى أماكن محددة كـ (مكة، الحجاز، خوارزم) في مقدمة كتابه، وهذه الأماكن استخدمت لمعرفة مكان المتكلم وقت التكلم.

- عرض الزمخشري المحاجة عن طريق السائل المفترض فطرح سؤاله، ثم أخذ يجيب بالاستدلال العقلي، وهو بذلك اتبع آليات إنتاج الخطاب حيث قدم تفسيرًا صريحًا لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، لبيان القصد للمتلقي من خلال الاستدلال العقلي، وهذا غاية الاستلزام الحواري أن يجعل المتلقي قادرا على الوصول لقصده.

- ظهرت المقصدية في محاجة الزمخشري في كشافه، فالمحاجة متماسكة ومتناسقة، والتحليل يسعى إلى صياغة القواعد اللغوية وذلك بربطه بين عنصرين أساسيين وهما التلفظ والعلاقة التي يجسدها الخطاب بين المتكلم والمستمع.

- سبق الزمخشري ميشال مايير بالحجاج القائم على السؤال والجواب، لكن السؤال عند الزمخشري صريح (حجة)، بواسطة السائل المفترض بواسطة التركيب (فإن قُلْتَ) فيعرض سؤاله على شكل حجاجي، ثم يجيب مدعما تلك الحجة الاستفهامية بقوله: (قُلْتُ) ويعرض الحجج للوصول للنتيجة الصريحة أو الضمنية، بينما الحجاج عند مايير هو دراسة العلاقة بين ظاهر الكلام وضمنيه، وقد ربط

الحجاج بنظرية المساءلة فالحجة عنده ليست إلا جوابا أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمنيا عن ذلك الجواب.

- إن طرح الأسئلة في الخطاب وسيلة هامة من وسائل الإثارة وإلزام المتلقي باتخاذ موقف ما، ومما على يدل أهمية البنية الحجاجية الاستفهامية تواجدها في كل خطاب في بنيته السطحية أو في بنيته العميقة أيضا، فكل خطاب لا بد وأن يثير أسئلة تستدعي بالضرورة جوابا ومن ثمَّ حجاجا، وقد استخدم الزمخشري العديد من أدوات الاستفهام البسيطة والمركبة (مسبوقة بحروف جر متصلة أو منفصلة).

- خروج الاستفهام عند الزمخشري إلى التقرير والتعريض والتحضيض.

- تمثلت أشكال بناء الحجاج في الخطاب عند الزمخشري في نوعين: الأول: التطرق لأطروحتين أو قضيتين تمثلان إشكالا، ويبنى منهما حجاج على أساس(مع أو ضد) إحدى القضيتين، والثاني: ويتمثل في الدفاع عن أطروحة (معطاة أو مقدمة) بالحجج.

المصادر والمراجع

أولا: مصدر البحث :

- **القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.**
- **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (467هـ- 538هـ)، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه د. خليل مأمون شيحا، ط3، دار المعرفة، بيروت، لبنان،1430هـ- 2009م**

ثانيًا : مراجع البحث :

1- المراجع العامة :

- **الأساس في التفسير، سعيد حوّى، دار السلام - القاهرة، ط6، 1424 هـ- 2004م.**
- **استراتيجيات الحجاج في المناظرة السياسية، أنور الجمعاوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،1433هـ- 2013م.**
- **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1422هـ- 2002م.**
- **أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، الحجاج عند أرسطو، د. هشام الريفي، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف د. حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب، منوبة، د. ط، د.ت.**
- **بلاغة الاقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، منشور ضفاف الاختلاف، لبنان،ط1، 1433هـ- 2013م.**
- **البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1420هـ- 2000م.**
- **البلاغة العربية- قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط2، 1427هـ- 2007م.**
- **التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب**

العربي ، بيروت، ط1 ، 1405هـ- 1985م.

- الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم الأمين، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1428،1هـ - 2008م.
- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، لبنان،ط1421،1هـ - 2001م.
- دائرة الأعمال اللغوية، دار الكتاب الجديد المتحدة، شكري المبخوت، ط1430،1هـ - 2010م.
- شرح تسهيل الفوائد، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (672هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان،ط1 ،1410هـ - 1990م.
- شرح المفصل للزمخشري، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (643هـ) ،قدم له: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1422هـ -2001 م.
- عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج، د. عبد السلام عشير، ط1، أفريقيا الشرق للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1427هـ- 2006م.
- فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (نظم الآجرومية لمحمد بن أبَّ القلاوي الشنقيطي)، المؤلف (مؤلف الشرح): أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي، الناشر: مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
- في نظرية الحجاج،د .عبدالله صولة، مسكيلياني، للنشر والتوزيع،ط1، تونس،1431هـ - 2011م
- الكافية في علم النحو، ابن الحاجب جمال الدين بن عثمان بن عمر بن أبي بكر المصري الإسنوي المالكي (646 هـ)،تحقيق: د. صالح عبد العظيم الشاعر، مكتبة الآداب – القاهرة، ط1، 1430هـ - 2010 م.
- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت،

1419هـ - 1998م.

- اللسان والميزان (التكوثر العقلي)، طه عبد الرحمن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1418،1هـ - 1998م.
- مفتاح العلوم، السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي)، ضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ - 1987م.
- المنهاجُ المختَصر في عِلمي النَّحو وَالصَّرف، عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي، مؤسَسَة الريَّان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط3، 1428هـ - 2007م.

2- الدوريات:

- البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل أنموذجا، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، العدد (14) ،جامعة الجزائر، 1418هـ-1997م.
- دارسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم مقاربة تداولية، بوقرومة، جامعة محمد بوضياف، منشورات مخبر تحليل الخطاب، دار الأمل ،العدد (3)، المسيلة، الجزائر،1428هـ - 2008م.

3- الرسائل العلمية:

- أثر السياق في ترجيح دلالة النص لدى الزمخشري، الكشاف أنموذجا، دايد عبد القادر، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 1437هـ - 2017م.
- الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة ، لابن قتيبة ، دراسة تداولية، دكتوراه، ابتسام بن خراف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر،1429هـ - 2009م.